

الهجرة النبوية الشريفة في الشعر العربي

* دكتور . حمد النيل محمد الحسن إبراهيم

مستخلص البحث:

لقد كانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة انتصاراً عظيماً للإسلام، أدى إلى نقلة كبرى في حياة العرب العقديّة، والاجتماعية، والسياسية، والأدبية. وكان حظ الأدب منها عظيماً، فقد ظهر أثر هذه الهجرة فيه في صور عديدة في كل عصوره المختلفة، ففي عصر صدر الإسلام كان توثيق أخبار الهجرة في الشعر، ثم ظهور شعر الدعوة الإسلامية، وبيان موقف الإسلام من الشعر، وفي عصر بني أمية تمثل أثر تلك الهجرة في ازدهار شعر النقائض الذي يمثل شعر التهاجي بين شعراء المسلمين والمشرّكين مرحلة مهمة من مراحل تطوره، وفي العصر العباسي وما تلاه من عصري المماليك والأتراك أتاح شعراء المديح النبوي والمتصوفة حيزاً في قصائدهم لذكرى الهجرة النبوية وأخبارها، ثم أطل العصر الحديث، فاتخذ الشعراء من مناسبة الهجرة النبوية مناسبة دينية وقومية ينظمون فيها قصائدهم التي يعبرون فيها عن رفضهم للاستعمار الغربي، ويوردون فيها آراءهم الجريئة في نقد مجتمعاتهم، والأوضاع السياسية في أوطانهم، ممهدين لها بتحسّرهم على ضياع مجد أمتهم القديم، وقد لا تخلو قصائدهم من الثورة على المستعمر، وتوجيه النصيح للأمة، وتعليق الآمال على المستقبل القريب.

* أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية الآداب - جامعة الخرطوم.

Abstract:

The Prophet's Migration, peace be upon him, from Makkah to Madina has been a great victory for Islam. It has resulted in a great change in the Arabs doctrinal, political, social and literary life . It also had a great influence on the Arabic Literature. This influence is clearly seen in different decades of the Arabic Literature. For example in the Islamic decade the news of the migration had been documented in the poetry, the Islamic poetry appeared and the attitude of Islam towards poetry was declared . In the Amoiic decade the influence of the migration is represented in AL- Nagaad poetry . In Abbasi decade and the following decades of Turkish and Mamaleek , the sofi poetry was much concerned about the migration news .Then came the modern era in which the poets took the occasion of the migration as a religious and national one . On this occasion they write poems expressing their refusal of the Western colonization , and speak up their daring opinions that criticize their societies and the political situation . In their poems , they revolt against colonization and give advice to the nation .They also place hopes in the near future .

مقدمة:

لقد كانت هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة حدثاً مهماً في تاريخ الأمة الإسلامية بل العالم بأجمعه، ومن دلائل عظمته أن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما أراد أن يتخذ لهذه الأمة تقويماً غير تقويم النصارى لم يجد من الأحداث المهمة في تاريخها ما يتخذ به بداية للتقويم أولى من هذه الهجرة المباركة. فقد أورد الطبري أن أول من كتب التاريخ عمر (رضي الله عنه) لسنتين ونصف من خلافته، فكتبه لست عشرة من الهجرة بمشورة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه). كما أورد أيضاً أنه جمع الناس فسألهم: من أي يوم نكتب؟ فقال علي (كرم الله وجهه): من يوم هاجر رسول الله وترك أرض الشرك. ففعله عمر. (1)

فقد كانت هجرته (صلى الله عليه وسلم) انتصاراً كبيراً للإسلام على الشرك، وبداية لقيام أعظم دولة عرفها التاريخ متخذة من المدينة المنورة حاضرة لها، لتحدث بذلك نقلة كبرى في تاريخ البشرية شملت كل أوجه الحياة، عقدية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وعلمية، وأدبية كذلك.

لقد كان أثر هذه الهجرة النبوية على الشعر العربي واضحاً وعظيماً بداية من عصر صدر الإسلام، ثم العصور الأدبية التالية إلى العصر الحديث.

الهجرة النبوية في الشعر العربي القديم:

صحب الشعر العربي هذه الهجرة منذ بدايتها موثقاً لأحداثها وأخبارها وما صاحبها من معجزات نبوية، فكان أول ما يطالعه القارئ من شعر متعلق بالهجرة ما أورده ابن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر، خبر ذلك الهاتف من الجن الذي تغنى بمقدمه (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه أبي بكر (رضي الله عنه) على خيمة أم معبد، قالت: ثم انصرفوا. فمكثنا ثلاث ليل وما ندري أين وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وإن الناس ليتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول: (2)

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتي أم معبد
 هما نزلوا بالبر ثم تروحا فأفلح من أمسى رفيق محمد
 ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدا للمؤمنين بمرصد
 كما ورد خبر هذا الجني أيضا في ديوان حسان بن ثابت الأنصاري (رضي الله عنه) مضافا إلى أبياته تلك أبيات أخرى توثق خبر معجزته صلى الله عليه وسلم مع شاة أم معبد التي امتلأ ضرعها لبناً بين يديه رغم أنها قد انقطع درها منذ زمن ليس بالقريب ، فقد ورد على لسان الجني أيضا: (3)

سأوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن سألوا الشاة تشهد
 دعاها بشاة حائل فتحلبت له بصريح درة الشاة مزبد
 فغادرها رهناً لديها لحالب يردّها في مصدّر ثم موزد
 ثم أن حسان (رضي الله عنه) عندما سمع بخبر ذلك الهاتف جاوبه بقوله: (4)
 لقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
 نبي يرى ما لا يرى الناس حوالة ويثلو كتاب الله في كل مسجّد
 وإن قال في يوم مقالة غالب تصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
 ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته من يسعد الله يسعد

كما وثق الشعر أيضا خبر سراقه بن جعشم ولحاقه بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه أبي بكر (رضي الله عنه) كي يرجعهما إلى قريش فينال بذلك مائة من الإبل مكافأة على ذلك، فعندما اقترب منهما ساخت يدا فرسه في الأرض.....ولما رجع سراقه جعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا رده وقال : كفيتم هذا الوجه ، فلما ظهر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد وصل إلى المدينة، جعل سراقه يقص على الناس ما رأى وشاهد من أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وما كان من قضية جواده ، واشتهر ذلك عنه فخاف رؤساء قريش معرفته ، وخشوا أن يكون ذلك سببا لإسلام كثير منهم، وكان سراقه أمير بني مدلج ورئيسهم فكتب أبو جهل - لعنه الله - إليهم شعرا: (5)

بني مذكج إني أخافُ سفينكم
عليكم به ألا يفرق جمعكم
سُرَاقَة مُسْتَفْهِرٍ لِنَصْرِ مُحَمَّدٍ
فَيُصْنِيعُ شَتَّى بَعْدَ عَزِّ وَسُؤْدَدٍ

فقال سُرَاقَة بن مالك يجيب أبا جهل بقوله :

أبا حَكَمٍ وَاللَّهِ لَوْ كُنْتَ شَاهِدًا
عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا
عَلَيْكَ فَكَفَّ الْقَوْمَ عَنِّي فَإِنِّي
بِأَمْرِ تَوَدُّ النَّصْرَ فِيهِ فَإِنَّهُمْ
لَأَمْرٌ جَوَادِي إِذْ تَسُوخُ قَوَائِمُهُ
رَسُولٌ وَبِرَهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهُ
إِخَالٌ لَنَا يَوْمًا سَتَبْدُو مَعَالِمُهُ
وَإِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ طَرَأَ مُسَالِمُهُ

ويصحب الشعر النبي (صلى الله عليه وسلم) في هجرته المباركة حتى يصل إلى مشارف المدينة فيستقبله أهلها بالنشيد فرحين ومرددين (6):

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ تَنْزِيلَاتِ الْوُدَاعِ
وَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعِ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جَنَّتْ بِالْأَمْرِ الْمُطَاعِ
جَنَّتْ شَرَّفَتْ الْمَدِينَةَ مَرْحَبًا بِأَخِيرِ دَاعِ

كما يقف الشعر شاهدا على مشاركته (صلى الله عليه وسلم) بيده الشريفة أصحابه العمل في بناء مسجد المدينة ضارباً بذلك أروع المثل في مشاركة الراعي الرعية العمل في بناء مؤسسات الدولة، بثقلان وجد فقد كان أحد المسلمين يرتجز: (7)

لَنْنَ قَعْدُنَا وَالنَّبِيُّ يَفْعَلُ لَذَاكَ مِنْ أَعْمَالِ الْمُضَلَّلِ

وارتجز المسلمون وهم يبنونه أيضاً:

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

قال ابن إسحاق : فيقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ)،

كما أورد ابن كثير أيضاً : فطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يَنْقَلِبُ مَعَهُمُ اللَّيْلَ فِي بَنِيَانِهِ وَهُوَ يَقُولُ: (8):

هذا الحمال لا حمال خَيْرَ هذا أبرُّ ربنا وأظهر

ويقول:

لاهم إنَّ الأجرَ أجرُ الآخرةِ فارحمُ الأنصارَ والمهاجرةَ
كما أورد ابن هشام أيضا رجزا لعلِّي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) في بناء مسجد
المدينة يومئذ:

لا يَسْتَوِي مَنْ يَغْمُرُ الْمَسَاجِدَا يَذَابُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدَا
وَمَنْ يَرَى عَنِ الْغُبَارِ حَائِدَا

قال ابن هشام : سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر، عن هذا الرجز، فقالوا : بلغنا
أن علي بن أبي طالب ارتجز به ، فلا يدري : أهو قائله أم غيره⁽⁹⁾
كذلك كان لشعراء المدينة دور عظيم في توثيق خبر الهجرة النبوية
الشريفة شعراً، فقد نظموا قصائدهم معربين فيها عن فرحتهم بما أكرمهم به الله
(سبحانه وتعالى) من نعمة الإسلام وما خصهم به من حلول النبي (صلى الله عليه
وسلم) بينهم، فما هو شاعرهم أبو قيس بن صرمة يقول⁽¹⁰⁾ :

نَوَى فِي قَرِيشٍ بَضْعَ عَشْرَةِ حِجَّةٍ يَذْكُرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقًا مُوَاتِيَا
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ فَلَمْ يَرِ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرِ ذَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ فَاصْبِحْ مَسْرُورًا بِطَيْبَةِ رَاضِيَا
وَأَلْفَى صَدِيقًا وَاطْمَأْنَنْتَ بِهِ النَّوَى وَكَانَ لَهُ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ بِأَدِيَا
يَقْصُ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ وَمَا قَالَ مُوسَى إِذْ أَجَابَ الْمُتَنَادِيَا
فَاصْبِحْ لَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدَا قَرِيبًا وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ نَالِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حُلٍّ مَالِنَا وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَعَى وَالنَّاسِيَا
نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ أَفْضَلُ هَادِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ الْمُصَافِيَا

وشارك شعراء البادية شعراء الحضر في توثيق خبر الهجرة النبوية الشريفة
كما فعل كعب بن زهير (رضي الله عنه) عندما قدم إلى النبي (صلى الله

عليه وسلم) بلاميته (بانت سعاد) مادحا و معتذرا إليه لما نقل عنه أنه قد هجاه، كما مدح فيها أيضاً أصحابه من المهاجرين (رضي الله عنهم)، فقد وجد كعب فسي إيراد خبر الهجرة مدحا للمهاجرين لما فيها من الامتثال لأمر الله ورسوله والتضحية في سبيل هذا الدين وما فيها من مظاهر القوة والشجاعة، فذكر أنهم قد هاجروا أبطالا أقوياء مدججين بالسلاح كما يقول كعب: (11).

في غصنة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما استلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل مغازيل

صور الشعر أيضا هجرة الصحابة (رضي الله عنهم) مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وانتقالهم من مكة إلى المدينة، وكلهم فرح بهذا الاصطفاء؛ لما في هذه الهجرة من إعلاء لشأنهم عند الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم)، ولكن أم أحمد زوج أبي أحمد بن جحش لم تكن راغبة في هذه الهجرة مع زوجها لجهلها بالأمر، فحاولت جاهدة إثناء زوجها عنها، ولكن هيهات لها ما أرادت، فقد وهنت إرادتها أمام عزمته، كما يقول مخبرا عنها: (12).

ولما رأنتي أم أحمد غاديا بذمة من أخشى بغيب وأزهب
تقول: فإما كنت لا بد فاعلا فيمم بنا البلدان ولتنا يثرب
فقلت لها: بل يثرب اليوم وجهنا وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومن يقيم إلى الله يوما وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصيح وناصحة تبكي بدمع وتتذب

لعل أبرز أثر للهجرة النبوية الشريفة على الشعر العربي في عصر صدر الإسلام أنها كانت سببا مباشرا ورئيسا في ظهور لون جديد من ألوان الشعر عرف فيما بعد بشعر الدعوة الإسلامية، فعندما كثر أذى المشركين واشتد على النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وهم بمكة، فأمرهم الله (سبحانه وتعالى) بالهجرة إلى المدينة، فهاجروا إليها؛ شق على قريش أن ينجو محمد وأصحابه من أيديهم سالمين برغم ما أعدوه لهم من خطط محكمة للقضاء

عليهم، لذا أجمعوا أمرهم على أن ينالوا منهم ، وأن يلجأوا إلى أسلوب جديد في محاربتهم حتى يشفوا صدورهم ، فما وجدوا سلاحاً أمضى حداً ، وأبعد مدى ، وأشد إبلاماً ، وأكثر فتكاً، من سلاح الشعر. لذا أعدوا سهام قصائدهم وصوبوها ناحية المدينة ورموا بها محمداً وأصحابه. فكان ممن هجأهم من شعراء المشركين أبو سفيان بن الحارث (ابن عمه)، وابن الزبير، وأنس بن زعيم، وعمر بن العاص، وضرار بن الحارث، فما كان من النبي (صلى الله عليه وسلم) إلا أن ينزلهم بذات السلاح الذي يحاربونه به، فقال لأصحابه من الأنصار: ما منع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم؟ فقال له حسان بن ثابت (رضي الله عنه): أنا لها يا رسول الله. ولما أراد حسان أن يهجوهم، قال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال له حسان: والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، فقال له انت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك. فكان يجيء إلى أبي بكر ليوقفه على أنسابهم، فيقول له: كف عن فلانة، فجعل حسان يهجوهم، فلما سمعوا هجوه قالوا: هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة (13).

هذا الخبر السابق له أهميته في تاريخ الأدب في عصر صدر الإسلام من عدة نواح: فهو من ناحية يؤرخ للبدائية الحقيقية لشعر الدعوة الإسلامية، إذ لا يكاد يوجد شعر إسلامي قبله سوى بعض المقطوعات والأبيات المتفرقة في كتب السيرة والتاريخ، وقصيدة منسوبة لأبي طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) يشكو فيها ما يعانيه بنو هاشم من كيد قبائل العرب بهم لإيوائهم النبي (صلى الله عليه وسلم) ويؤكد قوة عزيمتهم على حمايته، وحرصهم على سلامته ، ويذكر فيها بعض شمائله (صلى الله عليه وسلم) ومكارم أخلاقه التي هي من صميم مكارم الأخلاق العربية، قال ابن إسحاق: فلما خشي أبو طالب دهاء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التي تعود فيها بحرم مكة ومكانه منه، وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره أنه غير مسلم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولا تاركة لشيء أبداً حتى يهلك دونه. ومطلع القصيدة: (14)

ولمّا رأيتُ القومَ لا ودَّ فيهمُ وقد قطعوا كلَّ العرى والوسائل

وعن شمائله (صلى الله عليه وسلم) يقول:

وأبيضُ يُستسقى الغمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

يلوذُ به الهلاكُ من آلِ هاشم فهم عندُة في رحمة وفواصل

فهذه القصيدة وإن بانّت فيها عاطفة الشاعر القوية ومحبة الصادقة للنبي (صلى الله عليه وسلم)، فهي لا تحمل دعوة صريحة أو ضمنية لاعتناق الدين الإسلامي، أو الدفاع عنه، أو اتباع رسوله، لذا فإن تصنيفها من شعر الدعوة الإسلامية يكون فيه نظر، وما فيها من محبة واضحة للنبي (صلى الله عليه وسلم) ربما يكون مصدرها يرجع إلى أن الشاعر قد نظمها مدفوعاً بعاطفة الأب الخائف على ابنه من الأذى والهلاك المحدث به.

ومن ناحية أخرى تجيء أهمية خبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع حسان (رضي الله عنه) من كونه يعد أقوى دليل على أن الإسلام لم يحرم الشعر، ولم ينفر منه، بل حضّ على قوله، وبذا يكون فيه أقوى ردّ على من يزعم أن الشعر في عصر صدر الإسلام قد لحق به الضعف بسبب أن الإسلام بتعاليمه قد نفر الشعراء من قول الشعر مستشهدين بقوله (سبحانه وتعالى) في سورة الشعراء:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ

يَقُولُونَ مَا لَنَا يَفْعَلُونَ﴾ (226) ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا

وَالْتَصَرُّوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)﴾ سورة

الشعراء. كما استشهدوا أيضاً بالحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه،

خير من أن يمتلىء شعراً)⁽¹⁵⁾. فبالإضافة إلى تجاهلهم لمعنى الآيات من آخر سورة

الشعراء، ومضمون الحديث الشريف، يكون هذا الخبر حجة قوية على بطـ

زعمهم. فالاستثناء في الآيات يدل على أنه سبحانه وتعالى صنف الشعراء صنفين: صنف مذموم وهم الشعراء المشركون وهم المستثنى منه، وصنف ممدوح وهم الشعراء المسلمون وهم المستثنى. كما أنه (صلى الله عليه وسلم) أراد بقوله السابق الشعر الذي يذكر الناس بجاهليتهم وعداوتهم القديمة ويحضهم على ارتكاب المعاصي. بالانتقال إلى العصر الأموي يظهر أثر الهجرة النبوية الشريفة في الشعر العربي في صورة أخرى، وهي أن ما دار في عصر صدر الإسلام من مهاجاة بين شعراء المسلمين والمشركين في المرحلة السابقة يعد مرحلة مهمة من مراحل تطور شعر النقائض الذي ازدهر في هذا العصر، وذلك أن حسان ومن يسانده من شعراء المسلمين رضي الله عنهم في مهاجاتهم للشعراء المشركين أو ردهم على شعراء الوفود كانوا يلتزمون بوزن القصيدة التي يردون عليها، وكذلك قافيتها، ورويها، وحركته، كما يردون على كثير من معانيها كما في قصيدة ضرار بن الخطاب بن مرداس في يوم بدر يهجو الأنصار: (16)

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الْأَوْسِ وَالْحَيِّنِ دَائِرٍ عَلَيْهِمْ غَدَاً وَالدَّهْرُ فِيهِ بَصَائِرُ
فَأَجَابَهُ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ بِقَصِيدَتِهِ: (17)

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهِ قَادِرٌ عَلَى مَا أَرَادَ لَيْسَ لِلَّهِ قَاهِرُ
وكذلك قصيدة عبد الله بن الزبير السهمي، يبكي قتلى بدر: (18)

مَاذَا عَلَى بَدْرٍ وَمَاذَا حَوْلَهُ مِنْ فِتْنَةٍ بِيضِ الْوُجُوهِ كَرَامِ
فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ:

إِيكَ بِكَتِّ عَيْنَاكَ ثُمَّ تَبَادَرَتْ بِدَمْعٍ تَعِلُ غُرُوبَهَا سَجَامِ

ومثلها قصيدة الزبيرقان بن بدر يفتخر بقومه بني تميم أمام النبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك عندما قدموا إليه ومطلعها: (19)

نَحْنُ الْكَرَامُ فَلَا حَيَّ يَغَادِلُنَا مِنْ الْمُلُوكِ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ

فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان أن يجيبه فأجابه بقصيدته التي مطلعها: (20)

إِنْ الذَّوَانِبُ مِنْ فَهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ

فهذا الأسلوب الذي انتهجه حسان وأمثاله من شعراء المسلمين (رضي الله عنهم) في ردهم على شعراء المشركين أو شعراء الوفود يعد مرحلة مهمة من مراحل تطور شعر التهاجي الذي أصبح فناً قائماً بذاته، وله أسسه الخاصة به، فكان ازدهاره في عصر بني أمية تحت اسم النقائض. بذا يكون حسان وأمثاله من الشعراء المسلمين ممن أسهموا في إرساء قواعد، ويكون للهجرة النبوية الشريفة دور عظيم في ذلك، بغض النظر عن مضمون شعر النقائض وتقويمه في ميزان الإسلام.

أما في العصر العباسي فقد تمثل أثر الهجرة النبوية الشريفة في الشعر العربي في قليل من القصائد التي تطرق فيها بعض الشعراء لأخبار الهجرة النبوية الشريفة وما صاحبها من معجزات، فقد كان أثرها ضعيفاً فيه.

في عصري المماليك والأتراك ازدهر شعر المديح النبوي لاسيما عند الشعراء المتصوفة أمثال الصرصري، وعبد الرحيم البرعي، والبوصيري، ولعله من أشهر القصائد في هذه الحقبة قصيدة (ردة المديح النبوي) للبوصيري، وقد أسماها بالبردة تيمناً بلامية كعب بن زهير سابقة الذكر، تلك التي مدح فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من المهاجرين رضي الله عنهم فكافأه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن خلع عليه بردته تشريفاً له، يقول البوصيري في بردته متطرقاً لخبر الهجرة النبوية الشريفة: (21).

وما حوى الغار من خير ومن كرم	وكل طرب من الكفار عنه غمي
فالصدق في الغار والصدق لم يرما	وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على	خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة	من الدروع ومن غار من الأطم

فما أورده البوصيري هنا من خبر معجزة الحمامة التي باضت على باب غار ثور، وكذلك خبر العنكبوت الذي ضربت نسيجها على بابه لأجل إخفاء النبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه أبي بكر (رضي الله عنه) وحمايتهما من المشركين قد أورده ابن كثير في تاريخه ثم أورد قول الصرصري في ذات الشأن أيضاً: (22).

فَغْنَى عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهِ وَظَلَّ عَلَى الْبَابِ الْخَنَامُ بَبِيضُ

ويلاحظ أن معظم الشعراء في هذه الحقبة في تناولهم لأخبار الهجرة يشتركون في وقوفهم عند بعض أحداثها المهمة والتي تعد من المعجزات النبوية، مثل خروجه (صلى الله عليه وسلم) من منزله دون أن تشعر به جموع المشركين التي كانت تحاصره حينها، وكذلك خبر شاة أم معبد، وخبر سراققة، وخبر الحمامة والعنكبوت، ولعل هذا ما يتضح في أبيات البوصيري السابقة، فمن كل أخبار الهجرة لم يتطرق إلا لخبر اختفاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه بغار ثور وما صاحبه من خبر الحمامة والعنكبوت، ولم يتطرق لما قيل ذلك أو بعده من أخبار الهجرة النبوية الشريفة. كما يلاحظ أيضاً أنه بالرغم من كثرة قصائد المديح النبوي في هذه الفترة، لم يتح لأخبار الهجرة النبوية حيز كبير من شعر المديح شأنها في ذلك كبقية أخبار سيرته العطرة، ولعل ذلك مرجعه إلى أن الشعراء قد وجهوا اهتمامهم في المقام الأول إلى التعبير عن وجدهم وتشوقهم ومحبتهم الصادقة للنبي (صلى الله عليه وسلم) وآله وصحبه (عليهم الرضوان) فقد غلبت عليهم محبتهم، فانشغلوا بها عما سواها في قصائدهم إلا قليلاً. فهم في ذلك كشعراء الغزل العنري في العصر الأموي.

الهجرة النبوية في الشعر العربي في العصر الحديث :

في هذا العصر اقتفى الشعراء خطى شعراء العصور السابقة لاسيما شعراء العصر المملوكي والعصر التركي، مجارين ومقلدين لقصائدهم في ذات الموضوع ومشطرين ومخمسين لها، ومجددين فيها أحياناً، كما فعل أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته التي جارى فيها البوصيري، والتي أسماها (نهج البردة) ، يقول فيها عن الهجرة النبوية : (23).

سَلَّ عُصْبَةُ الشُّرَكَ حَوْلَ الْغَارِ سَائِمَةً لَوْلَا مَطَارِدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تَسْمُ

هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَاءَ أَمْ سَمِعُوا هَمْسَ التَّسَابِيحِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أَمَمٍ
وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ كَالْغَابِ وَالْحَانِمَاتِ الزُّغْبُ كَالرَّخَمِ
فَادْبَرُوا وَوَجَّوْهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ كِبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٍ
لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارِينَ مَا سَلِمَا وَعَيْنُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقُمْ
تَوَارِيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ وَاسْتَتَرَا وَمَنْ يَضُمُّ جَنَاحَ اللَّهِ لَا يَضُنُّهُمْ

وللشاعر أحمد محرم عدة قصائد تتبع فيها أخبار الهجرة النبوية في ديوانه (مجد الإسلام)، بدأها بإرادة الكفار قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفيها يقول: (24).

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا هُوَ الْقَتْلُ (م) يُمِيطُ الْأَذَى وَيَشْفِي الصُّوْرَا

ثم تلاها بقصيدة أخرى (في الغار الأكبر غار ثور) ومنها:

غَارُ ثَوْرٍ أَعْطَاكَ رَبُّكَ مَا لَمْ يُعْطِ مِنْ رَوْعَةِ الْجَمَالِ الْقُصُورَا
جَاءَكَ الْمُنْقَذُ الْمَحْرُورُ لَا يَتَّ رُكُّ قَيْدَا وَلَا يُقَادِرُ نَيْسِرَا

ثم قصيدة بعنوان (أبو بكر والحية) ثم (سراقة بن مالك يريد قتل النبي) ثم (في خيمة أم معبد) ثم (حي بن عمرو بن عوف) ثم (من قباء إلى المدينة) ومنها: (25).

أَقْبِلْ فَتِلْكَ دِيَارُ يَثْرِبَ تَقْبِلُ يَكْفِيكَ مِنْ أَشْوَاقِهَا مَا تَحْمِلُ
الْقَوْمُ مَذْفَارُكَ مَكَّةَ أَعْيُنُ تَأْبَى الْكَرَى وَجَوَانِحُ تَتَمَلَّلُ
يَنْطَلِعُونَ إِلَى الْفَجَاجِ وَقَوْلُهُمْ أَفَمَا يَطْلَعُنَا النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ

ثم تلاها بقصيدة بعنوان (مسجد المدينة) ثم (المواخاة بين المهاجرين والأنصار) وهكذا سار الشاعر في إيراد القصائد والمقطوعات. ويلاحظ أنه قد سرد فيها أخبار الهجرة النبوية بتسلسل تاريخي وتفصيل دقيق، وذلك لأنه ربما أراد في هذا الديوان أن يصوغ تاريخ الإسلام شعراً، بما فيه السيرة النبوية العطرة، ولعل هذا ما جعل ديوانه أشبه بالمنظومات العلمية في مبناه، وإن اختلف عنها في خياله والعاطفة التي أضفاها عليه، عاطفة المسلم المحب لرسوله، الغيور على دينه، وإن كان قد أسماه (الإلياذة

الإسلامية) تشبيهاً له بالإلياذة في الأدب الإغريقي ، رغبة منه في التجديد ، إلا أنه أشبه ما يكون ببردة البوصيري مضموناً، ومبنى ، وعاطفة ، فهو لم يبتعد عنها كثيراً في تناوله للسيرة النبوية من حيث التسلسل التاريخي للأخبار والأحداث ، وإن زاد عليها في التفاصيل.

في هذا العصر الحديث بعيد وقوع البلدان العربية تحت نير الاستعمار الغربي ، وقد رأت الشعوب العربية ما رأت من تجبر المستعمر وتسارعه وطمشه ونهبه لثروات بلدانهم ، غلب عليهم الإحساس بالأسى وبأنهم مستعمرون ، فأخذوا يتذكرون ماضيهم ويحنون إليه ، ويبحثون عن أسباب ضياع مجدهم ، فما وجدوها إلا في تخليهم عن دينهم ، وضعف عقيدتهم ، وبعدهم عن تراثهم ، وإعجابهم بالمستعمر وبحضارته ، ولهتهم وراءه ، وتقليدهم الأعمى له ، فلما عرفوا الداء وأسبابه أخذوا يبحثون عن الدواء ، فتيقنوا أنه في نبد الأسباب السابقة ، والرجوع إلى قديمهم وإحيائه ، والتمسك به ⁽²⁶⁾ وتحقيقاً لذلك كان مما أحياء المثقفون العرب والمسلمون في معظم الأقطار العربية والإسلامية الاحتفال ببداية العام الهجري وكانت مسيرة الشعراء العرب لهذا التوجه الجديد؛ فكان أبرز أثر للهجرة النبوية الشريفة في الشعر العربي في العصر الحديث يظهر فيما درج عليه كثير من شعراء العربية من اتخاذ مناسبة ذكرى الهجرة النبوية ورؤية هلال محرم مناسبة لنظم قصائدهم فكثرت في دواوينهم تلك القصائد التي يحيون فيها الهلال كقصيدة شوقي التي مطلعها: ⁽²⁷⁾

العام أقبلَ فمَ نحى هلالاً كالتاج في هام الوجود جلالاً

وكقصيدة الشاعر السوداني عبد الله البنا: ⁽²⁸⁾

يا ذا الهلالُ عن الدنيا أو الدين حدثْ فإن حديثاً منك يشفيني

وكذلك قصيدة الشاعر حافظ إبراهيم (تحية العام الهجري) والتي مطلعها: ⁽²⁹⁾

أطلْ على الأكوان والخلق تنظرُ هلالَ رآه المسلمون فكبروا

ولم يجد الشعراء العرب النصارى منهم حرجاً في مشاركة الشعراء المسلمين الاحتفال به في قصائدهم كما في ديوان الشاعر خليل مطران الذي تكرر فيه القصائد التي يحيي فيها الهلال مثل قصيدته: ⁽³⁰⁾

هل الهلال فحيتوا طالع العيد حيثوا البشير بتحقيق المواعيد
بأيها الرمز تستجلى العقول به لحكمة الله معنى غير محدود
كما يحي الهلال في قصيدته (عظة العيد الهجري) والتي يقول فيها (31)
سلام على ذاك الهلال من امرئ صريح الهوى والحر لا يتكتم
ويشيد بمجد الهلال في قصيدة أخرى فيقول :

خفقت راية الهلال عليه راية الصديق في كفاح الخطوب (32)
فلعل ذلك يرجع إلى قوة الدعوة إلى القومية العربية آنذاك، فقد جعلت الشعراء العرب
جميعاً -

بغض النظر عن ديانتهم - ينظرون إلى الهلال باعتباره رمزاً للمجد العربي القديم،
في دعوة للتسامح الديني والاتحاد تحت راية العروبة لطرد المستعمر الغربي، الذي
يدين كثير منه بالنصرانية كذلك ، فلو كان التحيز العقدي مستحكماً في الشعوب
العربية لانحاز العرب النصارى للمستعمر الغربي وناصروه ضد المسلمين؛ لأنه
يحمل لواء التبشير المسيحي ، ولكنها القومية العربية التي كانت لها الغلبة آنذاك على
الانتماء العقدي في البلدان العربية ، يؤيد ذلك ما أورده الأستاذ سامي الكيال: أن
بعض الباحثين يرى أن القومية العربية بدأت بالثورة على الحكم العثماني (33)
 والمعروف أن العثمانيين مسلمون ولكن لم يشفع لهم إسلامهم لدى إخوانهم العرب
المسلمين، فثاروا عليهم ونظروا إلى حكمهم نظرتهم للمستعمر الأجنبي فقاوموهم
ودعوا إلى مقاومتهم. وفي المقابل لم يجد الشعراء العرب المسلمون منهم حرجاً في
ذكر الصليب رمزاً للمسيحية كما في قول الشاعر علي محمود طه مصوراً تسامح
الدينين : (34)

مسح الهلال دم الصليب وضمت جرح الأهلة راحة الصلبان
وكذلك قول حافظ إبراهيم: (35)

رعى الله شعباً جمع العدل شمله وتمت على عهد الرشاد رغائبه
تحالف في ظل الهلال إمامه وحاخامه بعد الخلاف وراهبه

بجانب ذلك كثر ذكر هلال الهجرة رمزاً للإسلام أو العروبة في كثير من قصائد الشعراء العرب المسلمين كما في قول الشاعر حافظ إبراهيم: (36).

لمصنر أم لربوع الشام تنسبُ هنا الغلا وهناك المجد والحسبُ
ركنان للشرق لا زالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافق يجبُ

وكما يلاحظ أن ديوان الشاعر البارودي - رائد الشعر العربي في العصر الحديث - قد خلا من ذكر الهلال وتحية العام الهجري على نحو ما هو مألوف في دواوين الشعراء الآخرين من بعده. ولعل في هذا دليلاً على أن موضوع الاحتفال بالهجرة النبوية الشريفة في الشعر العربي ربما ظهر بعد البارودي (37). مسيرة لتوجه الأمة العربية آنذاك لبعث قديمها، والتمسك بأصالتها ونبذ كل ما هو حديث مبتدع، لا يتواءم مع ذلك التوجه .

وغالباً ما تكون قصائدهم في بداية العام الهجري والتي تلقى في احتفالات كبرى تنتظم معظم الأقطار العربية خطاباً موجهاً للأمة، وكثيراً ما يجمع خطابهم بين تنكيرها بماضيتها التليد ومجدها العريق، والاعتزاز به، والتحسر على ضياعه، ثم استنهاض الهمم لإرجاعه، وقد لا تخلو قصائدهم من توجيه النقد للأمة في حاضرها.

ففي لامية شوقي التي يحي فيها الهلال يذكر الأمة العربية بمجدها القديم معتزاً به: (38).

فم للهلال قيام محتفل به
أمم الهلال مقالة من صناديق
هكذا هلاككم تكفل بالهدى
سنرت الحضارة حقبة في ضوئه
وبنى له الغرب الأجاود دولة
رفعوا له فوق السماك دعائماً
أثنى وبألف في النشاء وغالى
والصديق أليق بالرجال مقالا
هل تعلمون مع الهلال ضللا
ومشى الزمان بنوره مختالا
كالشمس عرشاً والنجوم رجالا
من عليهم ومن البيان طوالا

ويبدو أن الشعراء قد وجدوا في هذه القصائد التي ينظمونها مطلع كل عام هجري فرصة سانحة لتوجيه نقدهم اللاذع للأوضاع السياسية، والاجتماعية،

والدينية المعاصرة، متذرعين باستنهاض الهمم. ومن الأمثلة على ذلك نونية الشاعر السوداني عبد الله محمد عمر البنا التي استهلها بمناجاة الهلال ثم عرج على المجد العربي القديم متحسراً باكياً، ثم صوب سهام نقده وسخطه إلى الأوضاع في بلده السودان: (39).

والناسُ في القُطرِ أشياءَ ملفَّقةٌ	فإنْ تكشفْ فعنْ ضعفٍ وتوهينِ
فمنْ غنى فقيرٍ في مَروءَتِهِ	ومنْ قوى بضعفِ النفسِ مرهونِ
ومنْ طليقٍ حبيسِ الرأيِ مُنْقَبَضِ	فاغضبْ لمنْطَلِقِ في الأرضِ مسجونِ
وآخرُ هو طوعُ البطونِ يبرزُ في	زى الملوكِ وأخلاقِ البراذينِ
وهيكلُ تبعته الناسُ عن سرفِ	كالسامريِّ بلا عقلٍ ولا دينِ
يحتالُ بالدينِ للدنيا فيجمعُها	سحتاً وتوردهُ في قاعِ سجينِ

ففي هذه الأبيات يوجه البنا انتقاده اللاذع لشخصيات سودانية ورموز دينية لها مكانتها في المجتمع، بل هي في موضع القيادة السياسية والدينية، ولكنه لم يكن نقداً صريحاً لأن الشاعر لم يذكر أسماء تلك الشخصيات، بل عمد إلى الكناية عنها، الأمر الذي لم يمنع أحد هذه الشخصيات من مواجهة الشاعر وتقديمه إلى القضاء الذي حكم ببراءة الشاعر (40).

كما يبدو أيضاً أن موضوع التحسر على ضياع المجد العربي القديم - الذي شاع في تلك القصائد، نتيجة لارتفاع الوعي القومي في الأمة العربية، وإحساسها بإذلال المستعمر الغربي لها، بعد أن غفلت عنه حيناً مشدوهة بالتفوق العلمي والحضاري الذي بهر بها - قد جاء سابقاً لموضوع الاحتفال بذكرى الهجرة النبوية في الشعر العربي في العصر الحديث، ثم أنه لما درج الشعراء العرب على أمر الاحتفال بذكراهم في قصائدهم وجدوا فيه تربة خصبة، ومناخاً ملائماً، ومجالاً فسيحاً، لموضوع التحسر على ضياع المجد القديم الذي كان شاغلاً لهم آنذاك فجاء الموضوعان مقترنين في كثير من قصائدهم.

وبلاحظ أن هذه القصائد قد جاءت مفعمة بعواطف شعرائها، ولذا كان التباين في الجو النفسي فيها حسبما تقتضيه نفسية شاعرها، والظروف المحيطة به، ففي قصيدة حافظ إبراهيم (تحية العام الهجري) يبدو التفاؤل والأمل، إذ يوجه خطابه إلى شباب الأمة، معلقاً عليهم آماله العراض، بقول ناصحاً لهم : (41).

رَجَالُ الْغَدِ الْمَامُولِ إِنَّا بِحَاجَةٍ	إلى قادة تَبْنِي وشعب يُقَسِّرُ
رَجَالُ الْغَدِ الْمَامُولِ إِنَّا بِحَاجَةٍ	إلى عالم يدعو وذاع يَذْكَرُ
رَجَالُ الْغَدِ الْمَامُولِ إِنَّا بِحَاجَةٍ	إلى عالم يذري وعلم يُقَرِّرُ
رَجَالُ الْغَدِ الْمَامُولِ إِنَّا بِحَاجَةٍ	إلى حكمة تُمَكِّنْ وكف تُخَرِّرُ
رَجَالُ الْغَدِ الْمَامُولِ إِنَّا بِحَاجَةٍ	إلهم فسدوا النقص فينا وشمروا
رَجَالُ الْغَدِ الْمَامُولِ إِنَّا بِحَاجَةٍ	تُشَادِّكُمْ بالله أن تتكفروا

وقد تجيء هذه القصائد التي يحي فيها الشعراء الهلال مفعمة بالثورة بجانب الآمال التي يؤملونها في عامهم الجديد أو مستقبلهم كما في قصيدة الشاعر السوداني على عبد الرحمن إذ يقول ثائراً في قصيدته (نكرو الهجرة النبوية) : (42).

حَسِبُوا بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ تُعِيدُ أَصْدَاءَ الطُّبُولِ
هَذَا يَرَاوُغُ فِي الْكَلَامِ وَذَاكَ يَغْتَبِثُ بِالْحُقُولِ
فَقَدْتُ وَقَدْ كَانَتْ تَقْوُدُ تُجَرِّزُ الْقَيْدَ الثَّقِيلِ
لَمْ يُذَرِّكُوا أَنَّ الشَّبَابَ الْحُرَّ يَحْتَقِرُ الذُّيُولِ
لَمَّا نَسِيرُ مَعَ الْجُمُوعِ وَيَسْتَبِينُ لَنَا السَّبِيلُ
وَنَجُوبُ أَفَاقِ الْمَجَامِعِ وَالْمَصْنَعِ وَالْحُقُولِ
وَنَصِيحُ فِيهَا غَاضِبِينَ عَلَى الْمُرَاوِغِ وَالذُّخِيلِ
فَسِينَحْتِي التَّارِيخُ يَكْتُبُ مَا نُرِيدُ وَمَا نَقُولُ

ولكن برغم هذا التباين في الجو النفسي لهذه القصائد وإن كان يرجع إلى التباين في شخصيات الشعراء أنفسهم، والأوضاع التي يعيشونها في أوطانهم، إلا أنهم يتحدثون في هدف واحد، هو حرصهم على استعادة المجد القديم لأمتهم. وهكذا أصبحت مناسبة بداية العام الهجري مناسبة دينية يحتفل بها المسلمون، ومناسبة أدبية

وسياسية كبرى يبدى فيها الشعراء آراءهم الجريئة، ويوجهون فيها نقدهم اللاذع، لقادتهم ومجتمعاتهم، ويحفزون فيها همم الشباب ويحثونهم على المضي قدماً في طريق المجد والمعالي، ولذا فقد حظيت هذه القصائد بقبول رحب لدى كل الشعوب العربية على اختلاف عقائدها وتوجهاتها.

الهوامش والمراجع

- 1- تاريخ الطبري 38/4.
- 2- السيرة النبوية لابن هشام 101/2.
- 3- ديوان حسان بن ثابت 59.
- 4- المصدر السابق 59.
- 5- البداية والنهاية 462/4.
- 6- البداية والنهاية 488/4.
- 7- السيرة النبوية لابن هشام 110/2.
- 8- البداية والنهاية 465/4.
- 9- السيرة النبوية لابن هشام 111/2.
- 10- السيرة النبوية لابن هشام 125/2.
- 11- ديوان كعب بن زهير 67.
- 12- البداية والنهاية 426/4.
- 13- أسد الغابة في معرفة الصحابة 7/2.
- 14- السيرة النبوية لابن هشام 309/1.
- 15- فتح الباري شرح صحيح البخاري 48/10.
- 16- السيرة للنبوية لابن هشام 16/3.
- 17- المصدر السابق 8/3.
- 18- المصدر السابق 18/4.
- 19- المصدر السابق 217/4.
- 20- المصدر السابق 217/4.
- 21- ديوان البوصيري 169.
- 22- البداية والنهاية 452/4.
- 23- الشوقيات 145/1.
- 24- ديوان مجد الإسلام 8.
- 25- المصدر السابق 17.
- 26- أنظر شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي 38.